الأَديبْ و المُفَكِّرْ الرَّاحِل
رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاَوَنْد
خاطــرات

خاطـرات

.....

كنت في شارع سان ميشال من شوارع باريس أزرع رصيفه الطويل بقدمين حالمتين.

وكانت السماء غائمة يخيل للرائي أنّ غيومها قد أثقلت بأبخرة الماء أثقالاً شديداً حتى لتبدو وكأنها تتشبث بالقطرات كي تحول دون سقوطها إلى الأرض. الساعة بين الرابعة والخامسة والوقت صيف في يوم من أيام شهر آب. كنت أسير رغبة في المسير فحسب لا هدف لي ولا غاية والشارع هادىء قد فارقته أصداء الصخب والضجيج التي كانت ترافقه في العادة فلا تغادره أبداً. وقد يكون السبب في ذلك هو خوف الناس من سقوط مطر شديد.. رأيت قطة صغيرة فوق شجرة باسقة تحاول أن تقفز من غصن لها دقيق إلى غصن آخر ولكنها لا تلبث حتى تتردد فتبقى في مكانها منه مكتفية بإرسال موائها بانتظار من يبادر إلى إنجادها وإخراجها من الشجرة. وبينما كنت أفكر في طريقة أخرج بها القطة الصغيرة من مأزقها حدث أنّ أحد المارة قد استوقفه المواء نفسه فراح يتأمل في القطة مرتان وثالث ورابع وخامس خلال دقائق قليلة. لقد فكرت بتسلق الشجرة وإخراج القطة ولكن حوض الماء الذي كان يحيط بها من كل جانب حال دون تحقيق هذه الفكرة. ثم مرت دقائق أخرى وأنا أتسلى بمشاهدتها، يمازج تسليتي هذه نوع من الحزن والأسى على أنّني لم أستطع أن أنجدها. وفجأة سمعت صفارة سيارة للإسعاف يرافقها صدى سيارة كبيرة مسرعة. وكان الصدى يرتفع وينتشر قوياً شيئاً فشيئاً حتى إذا اقتربت سيارة الإسعاف رأيت خلفها سيارة من سيارات الاطفائيين الحمراء لم تلبث حتى تجاوزت سيارة الإسعاف ووقفت بالقرب من الشجرة ثم ارتفعت من أعلاها سلم شاقولية في اتجاه منحرف وتسلقها بعد ذلك بسرعة أحد فتيان الاطفائيين الذين كانوا يرافقون السيارة وأنجدت القطة وتفرق الناس الذين كان قد تكاثر عددهم ووقفوا ينتظرون نهاية المشهد رغم نزول قطرات ثقيلة من الماء فوق الرؤوس.

والحقيقة أنّ شيئاً أكثر من الفضول كان يشد هؤلاء المارة إلى مشهد القطة الصغيرة. لقد كانت علامات الإشفاق بادية عليهم. كما علمت بعد ذلك أنّ أحدهم قد اتصل بأقرب سرية من سريات الإطفاء طالباً إليها أن ترسل من يخرج القطة الصغيرة من الشجرة.

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضان عبدالرحمن لاوند (سيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا :info@RamadanLawand.com

المشهد في ذاته غير خطير وحكاية هذه القطة قد تتكرر في شوارع العاصمة في كل يوم.
وقد كنت جديراً أن أمر به مرور الكرام باحثاً عن هدية جديدة أتلهى بها قتلاً للوقت وانتظاراً لسقوط الليل.
ولكن جملة من المشاهد الأخرى لم تلبث حتى تزاحمت في خيالي لقد كان يدفع بعضها بعضاً وكنت أحس أنني في حاجة إلى قليل من التأمل والتدبر.
إنّ قطة صغيرة ضائعة فوق شجرة قد دفعت بعض المارة إلى المبادرة لإنقاذها فتوسلوا جهازاً من أجهزة الدولة وتوقف نشاط عدد من الرجال والنساء لتحقيق عملية الإنقاذ هذه.
موضوع الإنقاذ: قطة صغيرة.
يحدث هذا في الوقت الذي يتذابح فيه مئات الألوف والملايين من البشر ويتقاتلون.
أما سبب التذابح والتقاتل فهو أتفه من أن يستحق العناية والعرض والتقدير. إنّ هذا السبب هو خوف على الرزق، خوف على السلطان، خوف على المكاسب، خوف على الحياة.. كلهم خائفون وكلهم يبحثون عن ملجأ لهم يقيهم شرور هذا الخوف وأتأمل طويلاً لأتبين قيمة السبب الذي يدفعهم إلى الخوف فإذا به وهم كبير.
الخائفون يتوهمون من ضياع الرزق ولو عقلوا قليلاً ونسقوا أقوالهم لجاءهم الرزق كما يتمنون ويشتهون.
والخائفون يتوهمون من ضياع السلطان ولو تأملوا قليلاً لوجدوا أنّ في وسعهم أن يوزعوا مقدرات هذا السلطان توزيعاً يشبع غرائزهم جميعاً ويرضي رغباتهم دون استثناء ولكن الوهم يضيع عليهم الطريق وينحرف بهم عن الجادة.
والخائفون يتوهمون من عدوان مرتقب على حياتهم ولو وثق بعضهم بالبعض الآخر وأدرك كل منهم أنّ في وسعه أن يحافظ على حياته في حدود محافظته على حيوات الآخرين لذهب وهم الخوف، ولعادت نفوس الجميع إليهم وانتهت المأساة التي تعاني منها البشرية أشد الألم وتواجه بها أشد العقبات والمصاعب.. هذه أمنية حلوة يطرحها كل منا على نفسه باحثاً بها عن طريق إلى السلام والمحبة.
وهي في رأيي أمنية للجميع يطرحونها على أنفسهم ويحاول كل منهم أن يجيب عنها بطريقة خاصة.. منهم من يرى أنّ تحقيق هذه الأمنية لا يتم إلا بتكديس الثروات.. ومنهم من يرى تحقيقها في مضاعفة حذرة من الآخرين.
ومنهم من يعمل على تحقيقها باستئصال شأفة من يتوهم أنهم واقفون في وجهه عاملون على تحطيمه مصرون على انتزاع أسباب الحياة من بين يديه.

ولعلنا لو فكرنا قليلاً لوجدنا أنّ في وسع هذه الملايين المتذابحة من البشر أن تتلاقى على صعيد المحبة. يشد بعضهم بعضاً شعور هو أشبه بالشعور الذي شد المارة في شارع سان ميشال إلى القطة الصغيرة المتشبثة بغصن من أغصان شجرة باسقة.

لقد كان عطف المارة على هذه القطة ثمرة لثقتهم في أنها ليست خطراً عليهم.

لقد أنجدوها لأنهم لم يجدوا فيها غير معنى من معاني العاطفة الانسانية النبيلة. فما حذروا وما ترددوا وما تحسبوا شيئاً لقد ذهب خوفهم الوهمي من المجهول. لقد بدوا بكامل إنسانيتهم أمام هذا الحيوان الضعيف فإذا بهم يثبتون أنّ في وسع كل إنسان أن يرتفع بقيمه الأخلاقية وبمحتواه المعنوي إلى مستوى هو أنبل كثيراً مما يتصور وأجمل كثيراً مما يتوهم.

أيها المستمعون الكرام.....

المهم في رأيي أن يتحرر كل منا من القيود التي تشل تفاؤله وتصبغ باللون الأسود تأملاته ونظراته إلى أخيه الإنسان. والمهم أيضاً أن يثق منا بوجود قاسم مشترك يشد أحدنا إلى الآخر. قاسم يكشف عن جوهر إنسانيتنا ورغبتنا العميقة في الخلاص من عوامل القلق والاضطراب، وأن يشعر كل منا شعوراً عميقاً بأنّ مجتمعه هو خير ضمانة له.. أما السبيل إلى ذلك فهو الإيمان.

الإيمان بإنسانية الإنسان وقدسية الأمانة التي يحملها بين جنبيه وجدارته في أن يجعل من روحه شيئاً على صورة الحقيقة الالهية الخالدة.

إنّ إيماننا بأنّنا كلنا عبيد لله وأنّ أرزاقنا كلها بيد الله وأنّ جهودنا كلها لا تضيع حين تكون في سبيل المجتمع الذي نعيش فيه وأنّ الذين عجزوا عن فهمنا لا بد وأن يكتشفوا حقيقة ما غمض عليهم من عواطفنا ومواقفنا، إنّ هذا الإيمان أيها المستمعون الكرام هو سبيلنا إلى إشاعة المحبة وسلاحنا للدفاع عن حقيقتنا وهدفنا البعيد الذي نستهدفه.

هذا الإيمان هو الأمانة الإلهية التي عرضت علينا فقبلنا بها في الآية القرآنية الكريمة في قوله تعالى : " إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا " وهي أمانة ثقيلة ظلم بها الانسان نفسه لأنه بها جهول.

فلنكن في مستوى هذه الأمانة تتحقق لنا أحلام السلام والمحبة وتنتفي أزمات الحقد والخوف الوهمي والصراع التافه من أجل ما خلقه الله للجميع على السواء..